مشكلة العلاقة بين ميّ وجبران

بقلم : أنور المعداوي

اذا وصفت العلاقة بين ميّ وجبران [1] بانها مشكلة ، فأنا لا اعدو الواقع بالنسبة الى الحقيقة التي عاشت في نفسي ردحاً من الزمن ، وكانت مفرق الطريق بيني وبين غيري من الدارسين . . إنها حقيقة بدأت بالشك حول تلك العلاقة وكان لهذا الشك في تربة النفس بذور ، نبتت في ظل التمحيص وأزهرت في ضوء المراجعة ، وأثمرت آخر الأمر تلك الثمرة الناضجة التي نسميها اليقين . هل كانت علاقة ميّ بجبران لوناً من الصلة الشعورية التي تندرج تحت كلمة الحب حيناً وتحت كلمة العاطفة حيناً آخر ، وتتصل من قريب ومن بعيد بأنوثة المرأة ورجولة الرجل ، إذا ما حددنا العاطفة الأنثوية نحو الطرف المقابل بأنها تفضيل وتمييز وإيثار؟ هذه هي المشكلة .. المشكلة التي يتطلب بحثها الكثير من الوعي والكثير من الحذر والكثير من الأناة ، لأن الباحث المسرع في الدراسة أشبه بالسائق المسرع في القيادة ، كلاهما في سبيل الوصول الى هدفه المنشود في أقرب وقت قد يرتكب جريمة قتل ، وفي خلال الطريق قد يكون المقتول بالنسبة الى السائق رجلاً وبالنسبة الى الباحث حقيقة . . والحقيقة التي قتلها الدارسون « المسرعون » هي ان عاطفة « الأنوثة » في ميّ لم تتجه يوماً الى جبران !!

إن صورة تلك العلاقة قد بدأت في نفسي كما قلت وهي داخل إطار من الشك المثير ، اما مصدر هذا الشك فهو طبيعة ميّ الأنثوية . لقد بدت لي هذه الطبيعة يوماً وهي مغلّفة بالانحراف ملفّعة بالشذوذ ، حتى استحالت في بوتقة الفكر الى سؤال حائر ينتظر الجواب . هل كانت ميّ امرأة ؟ امرأة ورثت كغيرها من النساء تلك التركة الخالدة عن الأم الاولى وهي حواء ؟ إن المرأة الطبيعية في رأيي هي تلك التي يستيقظ في اعماقها الشعور بالرجل ، سواء أكانت هذه اليقظة في صورة حب مضطرم ، ام كانت في صورة عاطفة جياشة ، ام كانت في صورة حس مشبوب . . هذه هي المرأة الطبيعية ، اما المرأة الشاذة فهي تلك التي «تنام» في اعماقها مثل هذه «اليقظة» ؛ هي تلك التي تلهب دون ان تحس بين جنبيها وهج النار ، هي تلك التي تثير ولا تثار .. هي ميّ في حقيقتها العميقة التي لم «تتذوق» طعم الحب لانها فقدت «شهية» الأنوثة ، وهذا هو الباب المغلق الذي يحتاج ليفتح على مصراعيه الى طرق عنيف !

لقد تتبعت حياتها النفسية وهي بين الرجال ، وهي في صالونها الادبي في ايام الثلاثاء ، وكان من بين أولئك الذين يحيطون بها رجال ممتازون .. بعضهم لا تنقصه الرجولة ، وبعضهم لا تنقصه الشهرة ، وبعضهم لا تنقصه المكانة الادبية والاجتماعية . وكل هذه الصفات جديرة بلفت نظر المرأة واجتذاب اعمق ما فيها من غرائز الأنوثة ، تلك التي تنشد في الرجل وجهاً معيناً من وجوه الاثارة . كانت تجتمع بهم ، وتتحدث اليهم ، ثم لا شيء وراء الحديث المألوف واللقاء المتكرر مما يتصل بالشعور الأنثوي والعاطفة الوجدانية . . ولقد شغف بها بعضهم ذلك الشغف الذي يذهب احياناً بالكرامة ويعصف بالوقار ، ومع ذلك فقد ظل القلب العجيب على

الآنسة مي

(١) كتب هذا المقال بمناسبة الذكرى الثانية والعشرين (نيسان ١٩٣١ نيسان – ١٩٥٣) لرفاة جبران .

همومه وخموده ، وكأنه لا يعرف النبض ولا يعترف بالخفوق ! هذا ولي الدين يكن يقول لها يوماً في إحدى رسائله :

« سيدتي ملكة الالهام .. ما أسكت هذا القلم عن مناجاتك إلا حرب الايام . إنه منذ ايام كثيرة اسيرها الذي لا يرجى فكاكه . غير اني كنت اناجي روحك كلما بدت لعيني اشياء من محاسن هذا الوجود .. كم وقفت امام الابيض المتوسط أرتجل العبرات . هذه أشعاري لا أهديها اليك ، إني لأشفق ان احييك بغير الابتسامات . وكم دخلت الروض اساجل قماريه . تلك أغان أرجّعها لديك ، إني لأخاف ان اغنيك بغير المسرات . والآن عندي قبلة هي أجمل زهرة في ربيع الأمل أضعها تحت قدميك . إن تقبليها تزيدي كرماً وإن تردّيها فقصاراي الامتثال . وبعد فاني في انتظار بشائر رضاك ، وطاعتك وإخلاص » !

اسلوب في الأدب والحب عند ولي الدين يكن يلتقي مع اسلوب مماثل عند الرافعي . واستمع له هو الآخر وهو يوجه الخطاب بعد المقدمة الشعرية إلى مي فيقول :

يا نسمةً في ضفاف النيل سارية ... مسرى التحية من ناءٍ الى ناءِ
يا ليت رياك مست قلب هاجرتي ... فتشعريه بمعنى رقة الماء
ليسب تحب سوى ألا تحب فما ... أعصى الدواء على من حبه دائي

« هذا ، وان النفس لتنازعني اليك ، ولكن لم اتطفل على احد من قبلك ، ولن اتطفل عليك مرتين ، نقول الشمس والقمر والنجوم ، فاذا أنت تريدين ان نراك من مرصد فلكي !.. واي بليغ يراك ولا يعرف فيك فناً جديداً في حسن معانيه ومبانيه ، ويعرفك ولا يرى فيك ابدع البديع فيما يعانيه من افتنانه ؟ لله الحمد ان جعلنا نتلقى الماء ولم يجشمنا ان نصعد من أجله السماء »!

اسلوبان كلاهما في الحب ذليل وفي الأدب مصنوع . وكم قلت لنفسي وانا استعرض ما فيهما من المواكب اللفظية ، المواكب التي كانت تمر تحت شرفة ميّ وهي تقدم تحية المقهور وولاء التابع وضراعة المبتهل : أتكون ميّ قد نظرت إلى الرجلين نظرة المرأة المدلّة بكبرياء الانوثة الى كل حب ذليل ؟ أم تكون قد نظرت اليهما كأديبين نظرة الادبية المعتزة بشرف الثقافة إلى كل ادب غير خلاق ؟ فرضان إذا وضعتهما تحت مجهر الفكر لم يظفر احدهما بما ينشده الباحث من وسائل الاقناع . تريد ان تطمئن إلى كلا الفرضين فيقلقك هذا الخاطر الذي يثب من مكمنه ليعترض عليك : ألم يكن في حياة ميّ محب كريم على نفسه ؟ محب لا تنحني بين شفتيه ظهور المعاني ولا تخرّ على قدميها الكلمات ؟! ألم يكن في حياة ميّ أديب تثق بفنه ؟ أديب لا تختنق في أدبه الأخيلة تحت ضغط الصنعة المسرفة ، ولا تتحول الصور إلى جثث محنطة قد اطبقت عليها توابيت الألفاظ ؟! يعترض عليك هذا الخاطر فلا تملك إلا ان تعترف بالواقع ؛ الواقع الذي يشير في حياة ميّ إلى وجود جبران ... وعندئذ تتبخر في الفضاء كل الظنون وتنهار تحت اقدام الفكر كل الفروض !

لقد كانت طبيعتها الانثوية واحدة هنا وهناك ... فتور عجيب يزلزل في نفسك قوائم الايمان بانها كانت امرأة ، امرأة يضطرب بين جنبيها الاحساس الخالد بالانوثة وينطلق من وجودها الداخلي نداء الاعماق ! إن بين ايدينا رسائلها ورسائله فتعال نبحث بين السطور عن أثر الانثى الطبيعية ، وتعال بعد ذلك نفتش بين ركام الالفاظ عن المفتاح .. المفتاح الذي ندير به في ثقب الباب المغلق ليفتح على مصراعيه ، اذا لم يؤمن الذين نادوا بحب ميّ لجبران بنتيجة الطرق العنيف !

« أنا ضباب يا مي .. أنا ضباب يغمر الاشياء ولكن لا يتحد وإياها .. انا ضباب وفي الضباب وحدتي ، وفيه انفرادي ووحشتي ، جوعي وعطشي .. ومصيبتي هي ان الضباب وهو حقيقتي يتوق إلى استماع قائل يقول : لست وحدك ونحن اثنان . انا اعرف من انت !

اخبريني يا ميّ ؛ أفي ربوعكم من يقدر ويريد ان يقول لي : انا ضباب آخر ايها الضباب .. فتعال نخيم على الجبال وفي الاودية . تعال نسير بين الأشجار وفوقها ، تعال نغمر الصخور المتعالية ، تعال ندخل الى قلوب المخلوقات وخلاياها ، تعال نطوف في تلك الأماكن البعيدة المنيعة غير المعروفة .. قولي يا ميّ : أيوجد في ربوعكم من يريد ويقدر ان يقول لي ولو كلمة واحدة من هذه الكلمات » ؟!

أرأيت إلى هذا الاسلوب الجديد في الأدب والحب ؟ أرأيت إلى جبران الانسان تحترق في موقد العذاب خلجات نفسه ، وإلى جبران الفنان تنتثر في متحف الابداع لوحات أفكاره ؟ إنه الرجل الذي يعيش في الضباب ويود من كل قلبه ان يلمح من خلال الضباب شبح أنثى ، أو بارقة عطف ، أو طيف امل .. وها هوذا ينادي ؛ ينادي أنثاه نداء الوحدة والغربة ، والانفراد والوحشة ، والجوع والعطش . ترى هل فهمتْ لغة نفسه ، ووعت منطق شعوره ، وتذوقت في النداء حرارة الدعاء ؟ إن الانوثة الخامدة تقدم اليك هذا الجواب :

غزل ...

خبري انني ...

إسقني ، يا نديمُ ، بعتُكَ عمري
عشْ به أنت في بساط النّدامى
خبّري أنني رويتُ من الكرم
ويا طالمــا شممــتُ الخزامى
صحوةُ الرّوض والنسيم وسكرٌ
مثلمــا يزحم الغمامُ الغمــاما
وخــذِ اللؤلؤَ المنوّر بالكفِّ .
وعجّل به ، ورُشّ الظلامــا

المعطف

بيَ المحبوبةَ السمراءَ
من ُبنّ اليمانينــا
فمُ الابريق أم فمهـا
أضاع الرأيَ ساقينا
وفتُّ المسك بالكفّين
أم جرّت فساتينــا
وشهرُ النّور والبستان
أم حلّت بوادينــا

★

بروحي معطفَ الدّيباجِ
والدّيباجَ ، واللّينا
وما مسّت بطائنُهُ
وما دارت به حينا
وما يخفيه من كُتُبٍ
ولا يخفي العناوينـا
وما في طاعة الأزرار
من حكمٍ جرى فينا
وما بالصّدر من أثمار
وشيٍ ، كدنَ يهوينا
عناقيدٌ ، ودحرجةٌ
فيا عنباً ، ويا تينا ...

امين نخله

« لقد قصصت شعري .. وعندما ترى من صديقاتك بعد اليوم يا جبران من هن في هذا الزي يمكنك ان تذكرني ، وان تقول لهن في سرك إنك تعرف من يشبههن ! كنت إلى شهور راغبة في التخلص من هذه الذوائب التي يقولون إن لطولها يداً في قصر عقل المرأة ، وهو افتراء طبعاً ، ولكن عندما رأيت شعري بحلكته وتموجه الجميل وعقاربه الجريئة مطروحاً امامي تداعبه يد المزين شعرت بأسف على هذه الخسارة ! غير أن المزين طيّب خاطري بعبارات تكسرت فيها الكلمات الالمانية والايطالية ، وهو روماني على ما يقول ،فهل كان في وسعي ان اضحك ؟ لقد مضى يصف لي جمال الشعر القصير ومنافعه ومميزاته لا سيما وأنه ، على ما زعم المزين الصالح ، يليق لي كثيراً ...

وسألته إلى كم امرأة يقول كل هذه الكلمات فأجاب : « إنني فيلسوفة » ! أرأيت هذه الفيلسوفة التي تسعى إلى قص شعرها ثم تحزن عليه ، ثم تضحك لأن المزين يعزيها عن فقده بكلمات مسرحية »؟!

هذه هي المرأة التي كان يخاطبها جبران.. المرأة التي كانت يخاطبها بلغة الشّعر فتخاطبه بلغة الشّعر ، ويحدثها عن قلبه وهو بين يدي الأشواق فتحدثه عن رأسها وهو بين يدي الحلاق ، وإنه لحديث الانوثــة المكفنة بأثواب العدم ومن حولها صرخة من اصدق صرخات الوجود !

أنوثة مقتولة ولو التمست لها ميّ شتى الاسباب والمعاذير ؛ ولو حاولت ان تبرر شذوذها وهي تقول لجبران في رسالة سابقة تمهد بها لهذا الشذوذ :

« جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب.. إن الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمّي الحب في اعماقهم قوة ديناميتية رهيبة ، قد يغبطون عليها الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر ، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون ان يتمنوها لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة ...

ما معنى هذا الذي اكتبه ؟ إني لا اعرف ماذا اعني به . ولكنني اعرف انك محبوبي واني اخاف الحب . إني انتظر من الحب كثيراً فأخاف ألا يأتيني بكل ما انتظر ! اقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير . الجفاف والقحط واللاشيء في الحب خير من النزر اليسير.. كيف اجسر على الافضاء اليك بهذا، وكيف أفرط فيه ؟ لا ادري ! الحمد لله انني اكتبه على الورق ولا أتلفظ به، لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولاختفيت زمناً طويلاً، فما ادعك تراني إلا بعد ان تنسى!

حتى الكتابة ألوم نفسي عليها احياناً ، لأني بها حرة كل الحرية .. اتذكر قول القدماء من الشرقيين : إنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب ؟ إن القديس توما يظهر هنا ؛ وليس ما ابدي هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء أبعد من الوراثة ! ما هو ؟! قل انت ما هو هذا .. وقل لي ما إذا كنت على ضلال أو هدى فاني اثق بك واصدق بالبداهة كل ما تقول » !

أصدق ما يقال هنا عن هذا التمهيد انه متعمد ومقصود ، او انه حركة بارعة من حركات التغطية والتعمية والايهام .. تزعم ميّ انها تخشى الحب ولو صدقت لقالت انها لا تستطيع ان تتذوقه ، لأنها كما سبق القول قد فقدت أبرز الخصائص عند المرأة الطبيعية ! تخشى الحب ولماذا تخشاه ؟ ألأنه قد يأتيها بالنزر اليسير وهي لا ترضى بما دون الكثير ؟ وما هذا الكثير إن لم يكن هو الرباط المقدس في منظار حواء ؟ ! لقد لوّح لها جبران يوماً بهذا الأمل المشتهى عند كل أنثى فلم يلق منها غير الصدّ والاعراض .. لقد أرادتها صداقة فكرية وأرادها جبران علاقة وجدانية ، وها هي مي ترفض عرضه وتدور حول هذا المعنى بهذه الكلمات :

« .. لقد فهمتَ ما أريد وإنما في غير معناه الحقيقي ، وفهمته على وجه لم أقصده ! ثم سطت عليك الكبرياء ، كبرياء الرجل ، فنسيت ان السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن اللذين تكاتبنا أبداً كصديقين مفكرين ... آلمني سكوتك من هذا القبيل ، وأرهف انتباهي ، فأعلمني أنك لم تشاركني ارتياحي الى تلك الصداقة الفكرية ، لانك لو كنت سعيداً بها مثلي لما كنت رميت الى أبعد منها! وصار معنى سكوتك عندي: « إما ذاك وإما لا شيء » .. وأنت أدرى بأثر هذا في نفسي » !

تناقض بين موقف اليوم وموقف الامس ، وكلمات يطلقها اللسان هناك ويكذبها هنا واقع الشعور ، وما زلنا بعد هذا كله نفتش بين ركام الالفاظ عن المفتاح .. مفتاح الطبيعة الانثوية الشاذة التي لم ينبض فيها عرق بعاطفة نحو رجل من الرجال ! وقبل ان نقدم اليك هذا المفتاح نحب ان نرجع الى تلك العبارة التي ذكرت فيها مي اسم « توما » القديس وأثر الوراثة في حياتها النفسية . هناك كما تقول لجبران ما هو أبعد من أثر تلك الوراثة في تكوين نفورها من الحب ؛ هذه الكلمة التي تحمد الله على انها لم تنطلق من بين شفتيها وانما انطلقت من بين شفتي القلم .. هناك « شيء » آخر ؛ شيء آخر تسأل عنه جبران وتستنجد بذكائه ليلهمه الجواب ، ومعذرة للذكي النابغ اذا لم يفطن لهذا « الشيء» وهو بالنسبة الى المشكلة مفتاح الباب! معذرة لجبران اذا لم يفهم لغة مي النفسية لانه كان يحب ، وفي الحب تقرأ القلوب وحدها ولا تقرأ العقول .. ان عقل جبران لو لم يكن امام لغة مي معصوب العينين ، لرأى هذا « الشيء » البعيد وكأنه يراه من مدى قريب !

ما هو هذا الشيء ؟ رجعة اخرى الى الوراء .. الى رسالة قديمة من رسائل مي لنلتقط من بين سطورها المفتاح! لقد أغاظها جبران يوماً بكبريائه؛ كبرياء الرجل الذي يريد ان يشعر المرأة بانه قادر على السيطرة والامتلاك .. ازاء رجل من هذا الطراز لا تستطيع المرأة المعتزة بكرامتها الا ان تثور ، واذا ما ثارت المرأة فهي الثورة التي تعصف بالوعي وترفع عن وجه حقيقتها « الداخلية » كل قناع ! هكذا تجد كل امرأة وهكذا تجد

دار بيروت للطباعة والنشر

تقـــدم :

رسائل جبران	بقلم جبران خليل جبران
رسائل مي	بقلم مي زيادة
ظلمات واشعة	بقلم مي زيادة
ازاهير حـــلم	بقلم مي زيادة

تطلب في تونس من محمد خوجه
وفي العراق من المكتبة العصرية

ميّ، وتختلف الحقائق بعد ذلك تبعاً لاختلاف التكوين النفسي عند شتى النساء .. لقد ثارت على جبران ، وفي خلال ثورتها على مرجل وجودها الداخلي ولم يكن محكم الغطاء، فتطايرت قطرات السر الرهيب في هذه الكلمات :

«.. لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من واين انت .. وكثيراً ما أنسى ان هناك شخصاً ، ان هناك (رجلا) أخاطبه! فأكلمك كما أكلم نفسي، واحياناً كأنك (رفيقة) لي في المدرسة»!!

هكذا تكلمت ميّ ، واذا تكلمت ميّ فليس هناك زيادة لمستزيد .. ان ذلك « الشيء » الذي سألت عنه جبران قد أجابت عنه هنا في لحظة غضب ثائرة ؛ ولم يكن في كلمة واحدة غير « الانوثة المقتولة » ! واذا ما قتلت الانوثة في اعماق المرأة فقد قتل احساسها بالرجل وانمحت الفوارق الجنسية في عالم الشعور .. يبدو الرجل في منظارها وهو لا يختلف عنها في شيء لانها حُرمت حاسة الجنس وسُلبت توجيه الغريزة ، وقل بعد ذلك انه فقد الشهية نحو الاشياء وما يترتب عليه من أثر في سلوك الاحياء : تفقد شهية الطموح فتزهد في المجد ، وتفقد شهية القراءة فتشغل عن العلم ، وتفقد شهية الاكل فتعزف عن الطعام .. وكذلك المرأة حين تفقد شهية الانوثة فتنسى الرجل وتنفر من الحب ! لقد كانت مي في تلك السطور الاخيرة التي كتبتها لجبران هي المرأة التي « نسيت » ان هناك « رجلا » تخاطبه ؛ وكل امرأة تتعرض لهذا الشذوذ فهي واحدة من اثنتين : امرأة يتجرد ازاءها الرجل من أعمق صفات الرجولة فاذا هو في بوتقة احساسها « رفيقة » من عالم النساء ، وامرأة تتجرد ازاء الرجل من ابرز خصائص الانوثة فاذا هي في البوتقة نفسها «رفيق» من عالم الرجال ، ومن هنا ينقطع « التيار » العاطفي بينها وبينه وكأنه تيار كهربائي بين قطبين سالبين .. وهذا هو المفتاح!

ترى هل كفّ جبران بعد ذلك عن السير مع عاطفة ميّ « السالبة » او المسلوبة الى نهاية الطريق ؟ كلا ، لأنه ما زال يحدّق في لغة نفسها بعقل معصوب العينين :

« لدي امور كثيرة أريد ان أقولها عن العنصر الشفاف وغيره من العناصر . ولكن عليّ ان أبقى صامتاً عنها ، وسوف أبقى صامتاً حتى يضمحل الضباب ، وتنفتح الأبواب الدهرية ويقول لي ملاك الرب : تكلم فقد ذهب زمن الصمت ، وسر فقد زال وقوفك في ظلال الحيرة ! متى يا ترى تنفتح الأبواب الدهرية هل تعلمين ؟ هل تعلمين متى تنفتح الأبواب الدهرية ويضمحل الضباب ؟ ! .. ها قد بلغنا قمة عالية فظهرت امامنا سهول وغابات واودية، فلنجلس هنيهة يا ميّ ولنتحدث قليلاً. نحن لا نستطيع البقاء هنا دائماً لأنني أرى عن بعد قمة اعلى وعلينا ان نبلغها قبل الغروب » !

إنه ما يزال يسأل عن ابواب الامل متى تفتح ؛ الابواب التي تقف من ورائها امرأة تنتظره وفي شفتيها همس ، وفي عينيها لهفة ، وفي يديها ذلك المنديل الالهي الذي تجفف به عرق النفس وتمسح غبار الروح، بعد رحلته الطويلة المضنية في طريق الحياة.. انه يريد ان يجلس قليلاً ليستريح ، ويتحدث ، عن تلك القمة التي يود ان يبلغاها معاً قبل ان تحتضر شمس العمر على فراش الغروب ! ولكن الايام تمر والابواب لا تنفتح ، وليس هناك من ينتظر ، والقمة التي بلغها وحيداً بلا رفيق او حبيب ، كانت قمة اليأس والخيبة وضيعة الرجاء.

وانتهى الحديث عن اللقاء وابتدأ الحديث عن الرحيل، وها هو جبران ينثر بين يديها أشلاء شعور تمزقت أوصاله على بقايا الصخور :

« أتعلمين يا ميّ اني ما فكرت في الانصراف الذي يسميه الناس موتاً ، إلا وجدت في التفكير لذة غريبة وشعرت بشوق هائل الى الرحيل ؟ ولكني اعود فأذكر ان كلمة لا بد من قولها ، فأحار بين عجزي واضطراري وتغلق امامي الابواب ! لا ، لم أقل كلمتي بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان . اقول لك يا ميّ ، ولا اقول لسواك ، إني إذا انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها فإني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة

اقرأ

	ق.ل
المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران (ثلاثة اجزاء)	٤٠٠
عرائس المروج	٦٠
الارواح المتمردة	١٢٥
دمعة وابتسامة	١٢٥
الاجنحة المتكسرة	٧٥
المواكب	٦٠
العواصف	١٢٥
البدائع والطرائف	١٢٥
المجنون	٧٥
السابق	٥٠
النبي	١٢٥
يسوع ابن الانسان	١٢٥
آلهة الارض	٥٠
رمل وزبد	١٢٥
كلمات جبران	١٢٥

تطلب هذه الكتب جميعها من :

المكتبة الشرقية

بيروت — ساحة النجمة ، شارع المعرض

روحي .. أتستغربين هذا الكلام ؟ إن اغرب الاشياء اقربها الى الحقائق الثابتة ، وفي الارادة البشرية قوة اشتياق تحوّل السديم فينا الى شموس » !

وأخيراً ودع جبران الدنيا ورحل عن عالم الأحياء .. اما ميّ فقد بقيت من بعده وحيدة . لقد اضحت حياتها فراغاً من كل شيء : فراغاً من عطف الأبوة وحنان الأمومة، من صحبة الرفيق ونجوى الصديق ، من ألق الشهرة وفتون المجد ، من رونق الصبا وهتاف المعجبين ... وما كان أصدقها وهي تعبر عن هذا الفراغ في رسالة الى نسيبها الدكتور زيادة فتقول :

« إني اتعذب شديد العذاب يا جوزف، ولا ادري السبب، فأنا اكثر من مريضة وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما احسه فيّ وحولي . إن هناك امراً يمزق احشائي ويميتني في كل يوم ، بل في كل دقيقة ! لقد تراكمت علي المصائب في السنوات الاخيرة وانقضّت عليّ وحدتي الرهيبة — التي هي معنوية اكثر منها جسدية — فجعلتني اتساءل كيف يمكن عقلي ان يقاوم عذاباً كهذا ! وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبي ووحدتي الشعرية ، فكنت اعمل واعمل كالمحكومة بالاشغال الشاقة لعلي انسى فراغ مسكني ، انسى غصة نفسي ، بل انسى كل ذاتي » !

وقفة متأملة عند بعض الصور التعبيرية في هذه الرسالة ، لان تلك الصور ما هي الا اعترافات نفسية لم تفصح عن مدلولها الكلمات .. ما هو هذا « الأمرُ » الذي كان يمزق احشاءَ ميّ ويميتها في كل يوم كما تقول ؟ أليس هذا الأمر الذي يرمض جوانحها بالعذاب هو ذلك « الشيء » الذي كانت تسأل عنه جبران ؟ أليس هو الشعور بأثر « الأنوثة المقتولة » التي حرمتها الرجل حبيبَ قلب وانيسَ وحدة وشريكَ حياة ؟! ألا تسمعها وهي تشكو « فراغ المسكن » وتصور وحدتها الرهيبة بأنها كانت « معنوية اكثر منها جسدية » ! لقد كانت وحدة نفس اكثر مما كانت وحدة جسد ، لان المرأة التي تقتل فيها الأنوثة قلما تحس ذلك القلق الناتج عن كبت الغريزة ، وإنما الشيء الذي يكثر إحساسها به من غياب الرجل هو فراغ الحياة ! لقد كانت اضواء الشهرة تحول بين ناظريها وبين رؤية هذا الفراغ كما كانت صيحات الاعجاب تغطّي على طنينه الضخم كلما طرق السمع من حين الى حين .. وعندما اقبل اليوم الذي همدت فيه من حولها كل حركة وخفت كل صوت وانطفأ كل بريق ، تجلت لها الدنيا على حقيقتها المفزعة التي لا وهم فيها ولا خداع !

على ضوء هذا كله تستطيع ان تقول إن علاقة ميّ بجبران لم تكن علاقة قلب وإنما كانت علاقة فكر ، وإن عاطفتها نحوه لم تكن عاطفة حب وإنما كانت عاطفة اعجاب .. ولقد كان جبران جديراً بإعجابها وتقديرها وتفضيلها له على كل معاصريه من الادباء ، لأنه في رأينا ورأي الحق قد سبق بفهمه لحقيقة الفن ذلك الجيل الذي عاش فيه ! إن الفن في جوهره كما قلناعنه يوماً ليس فهماً للحياة يقف بنا عند حد الرؤية المادية والاثارة العقلية ، حين تقوم هذه من تلك مقام النتيجة من المقدمة او مقام النهاية من البداية ، وإنما هو الى جانب هذا حركة في الوجود الخارجي تعقبها هزة في الوجود الداخلي يتبعها انفعال ، انفعال يحدث تلك المشاركة الوجدانية بين منتج الفن وبين متذوق الفن ، نتيجة لذلك الفناء الشعوري بين الفنان وبين مصدر التلقية الأولى والالهام الوليد .. نريد ان نقول إن اللقطة البصرية في الانتاج الفني حين يعقب عليها العقل وحده ليست كل شيء ، مهما بلغت الطاقة الذهنية في التفكير والتعبير من صور شتى وآفاق ، وإنما العبرة هنا باللقطة النفسية التي تفتح منافذ النفس وتنحدر الى كوى الشعور ، وتستقر آخر الأمر في اعماق الذات الشاعرة في الطبيعة الانسانية !

وعندما نقول الوجود الخارجي والوجود الداخلي ، فإنما نقصد بالتعبير الاول ذلك المسرح الكوني الزاخر بالمشاهد المادية ونعني به الحياة ، ونقصد بالتعبير الاخير ذلك المعرض الانساني الحافل بالصور الوجدانية ونعني به النفس ، هناك حيث ترقب المدركات الحسية وتتأمل ، وهنا حيث تتلقى المدركات النفسية وتسجل ، ولابد من المشاركة الفنية التي يتم فيها التوافق بين عالم النفس وعالم الحياة ، لنحصل على هذا المزيج الاخير من واقعيتين : إحداهما نفسية والاخرى وجودية !

هذه الخواطر التي يثيرها في الذهن كل مشهد مادي في الواقع الخارجي ، يجب ان يصهرها الفن في تلك البوتقة الداخلية لتتحول الى مشاعر .. أليس الفن في حقيقته المثلى عملية استقبال حسية تعقبها عملية إرسال نفسية ؟ إنه لكذلك على التحقيق ، واننا لنفرق تبعاً لهذا التعريف بين انتاج فني لا يهزّ منا غير الحواس الخارجية وبين انتاج آخر يثير فينا ما اثاره الانتاج الاول ثم يزيد عليه حقيقة اخرى حين يطرق ابواب الشعور بغير استئذان.. وهذا المنظار الذي ننظر «اليوم» من خلاله الى جوهر الفن، لا نشك في انه كان منذ اربعين سنة منظار جبران !!

القاهرة **انور المعداوي**